أبو بكر الصديق

رجل نحيل البدن .. عظيم الأثر ..

و ما من مسلم إلا و في رقبته دين لهذا الرّجل

كتبه

فيصل الزامل

نعم ، هو رجل نحيلُ الجسم حتى إنّ إزاره يكاد ينحلُّ عن وسطِ بدنهِ لولا أنّه يكرر تثبيته ،ومن رقّة طبعه أنّه كان يقرأ القرآن بصوت حزين في سكة تقع في الممر المحاذي لبيته وكانت مساكن مكّة متقاربة البنيان ما يجعل الصوت يتردد في الليل الهادئ بين الجدران ، فكان صوته يدخل إلى قلوب السامعين وهو يقرأ كلام الخالق الجليل: ﴿۞وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ٤١ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ٤٢ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ٤٣﴾ غافر (٤١ – ٤٣) كان في نبرة صوته زهدٌ بالدّنيا وكأنّه يخاطبهم من قبرٍ ، بكلام نزل للتوّ من السّماء وكأنّ رطوبة السحاب لا تزال عالقة فيه بعد، كلامٌ زاده صوت ذلك القارئ الحزين نداوة برنين يتجاوب مع المعاني الجديدة على الأسماع ، معاني لامست شغاف قلوب أهل مكة من رجال وفتيان ازدحمت بهم السكك عند دار أبي بكر، فلما انتشر خبر تلك التجمعات أرسلت قريش إلى محمد ﷺ تقول له : (يامحمد، مُر صاحبك فليصلّي في داره، فقد أفسد علينا غلماننا) ، يقصدون عبيدهم الذين هفت نفوسهم إلى نداء الحرية الذي دخل بهدوء إلى قلوبهم وأخبرهم بأنّهم بشر لهم كيان وحقوق يجب أن تحترم ،ولذا كان هو أول من يشتري الرقيق ويعتقهم ، و أولهم بلال .

هذا الضعف البدني ورقّة الطبع لأبي بكر الصديق اختفت فجأة في أشد الظروف هولاً بعد وفاة النبي ﷺ يوم انقلبت الجزيرة العربية بأسرها على المدينة المنورة وتفشّى الذعر بين الناس ، فالقبائل تحتشد لتمشي إلى المدينة وترميها عن قوس واحدة ، كان حديث الناس في طرقات المدينة "ماذا نفعل ؟" ، ثم سمعوا بأنّ الجيش الضخم الذي أعدّه النبي ﷺ لمواجهة الرّوم قد استكمل استعداداته وعسكر خارج المدينة متأهباً للانطلاق بقيادة أسامة بن زيد لمواجهة الذين قتلوا من دخل في الاسلام في منطقة الأردن حالياً - معان - وكان استغراب الناس من استمرار أبو بكر في إنفاذ هذا الجيش

كبيراً ، فالمدينة المنوّرة نفسها الآن توشك أن تتعرض إلى هجومٍ كاسحٍ من القبائل ، كيف نفرّط بهذا الجيش ، كان ردّ القائد البصير " ما كنت لاستفتح بشيء أولى من إنفاذ أمر رسول الله ﷺ ولئن تخطفني الطير أحبّ إليَّ من ذلك "، لقد كان أبو بكر جندياً يلتزم الأوامر، التي صدرت من النبي ﷺ و هو على فراش الموت " أنفذوا بعث أسامة "، وعندما جاء أسامة مودّعاً النّبي رفع يديه الشريفتين إلى السّماء و جعل يدعو الله له ثمّ يضعها على صدر أسامة ، سار الجيش عشرين ليلة وقاتل الذين غدروا بالمسلمين و قتل منهم و حرق عليهم جزاء أفعالهم ثم رجع الجيش وقد سبقته أخبار النصر إلى المدينة دون أن يفقد أحداً من جنوده ، وكان هرقل متواجداً في حمص يسمع بهزيمة حلفاءه ،و طارت تلك الأخبار في أرجاء الجزيرة العربية و كانت كافيةً لردع أي تفكير بالهجوم عليها ،فالدّولة التي تقوم بهذا الهجوم الخاطف في هذه الظروف هي دولةٌ قويّةٌ متماسكة ، وبذلك تبيّن أنّ هذا القرار الذي اتخذه النبي ﷺ و التزم خليفته الصّديق بتنفيذه حرفيّاً كان بداية مسيرة أبوبكر الصارمة في مواجهة المردتين بنفس العزيمة و البأس .

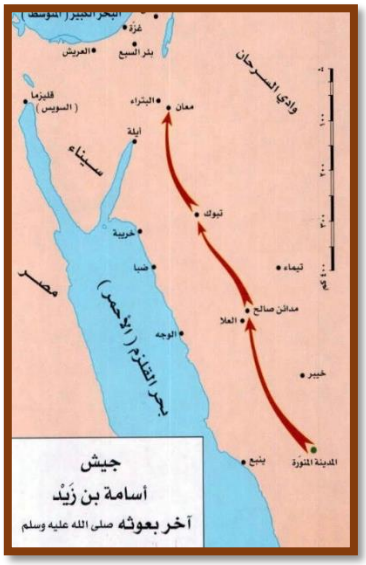

جيش أسامة متوجهاً إلى قتال الروم – معان

استمرت خلافة أبو بكر الصديق سنتان و ثلاثة أشهر و ثمانية أيام ، سوف نتوقف فيها في موقفين بارزين :

١- موقفه من حروب الردة

٢- حادثة سقيفة بني ساعدة

و لم نلتزم بالترتيب الزمني كون حادثة السقيفة جرت قبلاً، و ذلك لبيان حجم أثرها أولاً ،ثم نعود إلى تفاصيل ما جرى تحت تلك السقيفة في الجزء الثاني من هذه المذكرة.

أولاً : حروب الردّة (في ٤ محطّات)

(١) موقفه من الردّة هو انعكاس لرؤية شاملة للرسالة الخاتمة :

ادّعى الأسود العنسي النُبوَّة في اليمن وارتدَّت معه قبيلة مذحج وادّعى طُليحة بن خُويلد النبوة وتبعه بنو أسد وغطفان وطيء والغوث ، وادّعت سجاح النبوة ولحق بها بنو تغلب وناصرها بنو تميم، و ادّعى مُسيلمة النبوة في اليمامة وتبعهُ بنو حنيفة ووضع عنهم الصلاة ، وكذلك تنبَّأ لقيط بن مالك الأزدي في عُمان.

الأسود العنسي

سجاح

طُليحة بن خويلد

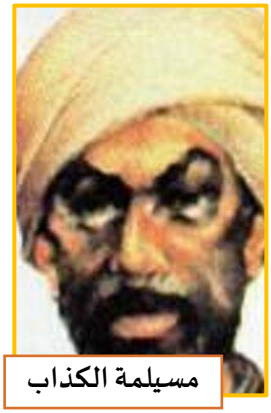
مسيلمة الكذاب

وأرسل هؤلاء المرتدون وفداً إلى المدينة المنوّرة لمفاوضة خليفة رسول الله ﷺ في تعطيل بعض أركان الإسلام ، و أوّلها الزّكاة إلاّ أنّه رفض ذلك وقال قولته المشهورة "والله لو منعوني عقالاً كان يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لجاهدتهم عليه "

فقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه : " كيف تقاتلهم وقد قال رسول الله ﷺ (أمرت أن أقاتل النّاس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال" لا إله إلا الله " فقد عصم مني نفسه وماله إلا بحقه وحسابه على الله") ، فأجابه : "والله لأقاتلن من فَرَّق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال ".

إذن ، كانت رؤية أبي بكر شموليّة لا تقبل تجزئة هذه الرسالة الخاتمة (فالإسلام كُلٌّ لا يتجزأ ..) ، وليس هناك من فرق بين فريضة وأخرى ورأى الصحابة أن الأخذ باللين أفضل، وقال عمر رضي الله عنه : "يا خليفة رسول الله، تألف الناس وأرفق بهم " فأجابه أبو بكر : "رجوت نصرتك وجئتني بخذلانك ؟ أجبّارٌ في الجاهلية وخوّارٌ في الإسلام؟ إنّه قد انقطع الوحي وتمّ الدين ، أوينقص و أنا حي؟ أليس قد قال رسول الله ﷺ : "إلاّ بحقها، ومن حقّها الصلاة و إيتاء الزكاة ، والله لو خذلني النّاس كلّهم لجاهدته بنفسي " .

(٢) لو نجحت الردة لما كان هناك إسلام :

هذه الصلابة في الموقف من لدن رجلٍ رقيقِ الطبع، نحيل الجسم حفظت استمرار الرسالة على النحو الذي تنزلت به، و لولا تلك الوقفة :

◆ لتفككت أركان الدّين ركناً بعد ركن ، فقد وضع مسيلمة عن الناس أداء الصلاة ، وتبعتها الزكاة ، و كنا سنتسلم من ذاك الجيل ديناً غريباً لا صلة له بما نعرفه اليوم ، دين كله غموض و تفكك عقدي ومبادئ متحركة في موازين العدل و القيم في زمن كان قريباً من عهد التمايز الطبقي والاستقطاب القبلي .

◆ كان الدّين سيتحوّل إلى مناطقيّة صارخة ، فما يصلح لليمن مختلف عما يطبق في عمان ، و هكذا ، سيكون دين يضع قواعده بشر حسب ثقافاتهم المحليّة ، و لن يلبث أن يتحول إلى ألغاز يصعب قبولها في بقية أنحاء العالم ، مثلما حدث مع دين المغول الغزاة الذين عاثوا في الأرض قتلاً ليكون العالم مملكة واحدة لهم ، بينما الإسلام دين يحاكي الفطرة و العقل السليم ، و لهذا تقبلته البشرية على تفاوت أحوالها و ثقافاتها.

◆ و لولا تلك الوقفة لانحصرت رقعته في المدينة المنورة ومكة، و لم ينتشر بالسرعة التي انتشر بها ، و بالرسوخ الذي استقر به في جميع بلاد الأرض التي وصل إليها ، والسبب هو ذلك الموقف الصلب من ذلك الرجل النحيل ، وعندما انتهت حروب الردة بالنصر المبين دخل عمر إلى مسجد رسول الله ﷺ ،و اتّجه مباشرةً نحو أبي بكر وهو في صدر المجلس فوقف على مرأى من جميع الناس و انحنى بقامته الطويلة و قبّل رأسه و هو يقول له " بأبي أنت و أمي يا خليفة رسول الله ، لولا أنت لهلكنا " ...

◆ نعم لقد نجت المدينة من أن تغزى في عقر دارها بخروج جيش أسامة ، وحفظ الله الإسلام للبشرية جمعاء مثلما تنزّل من السّماء كاملاً غير منقوص برفض مطالب المرتدين، فتوالى انتشار العلم بأحكام الصلاة و أحكام الزكاة ، ولولا ذلك لما سمعنا حتى بحديث النبيﷺ حيث قال: « أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمساً، هل يُبْقي من درنه شيئاً »،قالوا : لا يبقي من درنه شيئاً ، قال : كذلك الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا " ، مثل هذا الحديث لم نكن سنسمع به في دين

مسيلمة وسجاح ، وحتى التصور السليم للألوهية والربوبية كان سيتحول إلى دخان، فقد سأل الناس "يا رسول الله أربنا قريب فنناجيه أم بعيد فنناديه؟" فنزل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ﴾، وعندما رآهم النبي ﷺ في سفر يدعون الله بصوت مرتفع كالصراخ قال: " أَيُّهَا النَّاسُ أَرْبِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا ، إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا" ، بل لم نكن سنسمع عن كل منارات الهدى التي جاء بها الإسلام ، كلها كانت ستتهدم في بداياتها الأولى لو لم تكن تلك الوقفة العقائدية التي سجلها التاريخ بكل الوقار لأبي بكر الصديق رضي الله عنه .

(٣) الأكثرية ليست شرطا لاتخاذ القرار :

الدرس الكبير من موضوع الردة هو عدم تغليب أبا بكر لرأي الأكثرية ، و هو ما جعل موضوع الشورى غير ملزمة للحاكم إذا ترجح لديه رأي آخر ،و أن الشورى هي إثراء وتصويب للرأي ، و اجتهاد جماعي من أهل الرأي السديد ، و بالنهاية ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ١٥٩ ﴾(آل عمران ١٥٩) فالشورى بذاتها واجبة (ما خاب من استخار ولا ندم من استشار) ، و مثل ذلك استشارة ملكة اليمن ﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ٣٢ ﴾ (النمل ٣٢) و كانت مشورتهم هي القتال﴿ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ٣٣ ﴾ (النمل ٣٣) ، لكنّ قرارها كان مختلفاً عن رأيهم: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ٣٤ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ٣٥ ﴾ (النمل ٣٤-٣٥) فالقرار النهائي هو مسؤولية رئيس الدولة و هو غير مقيّد بالشورى ، و هذا هو الأساس الذي قام عليه

مبدأ فصل السلطات ، وهو مصطلح صاغه في العصر الحديث بهذه التعبيرات المفكر السياسي الفرنسي مونتسكيو و عمل به الرومان القدماء حيث تم تقسيم فروع السلطة إلى السلطة التنفيذية، والسلطة التشريعية، والسلطة القضائية ، و إذا كانت القضائية واضحة كل الوضوح في استقلالية القرار و تفاوتت تطبيقات السلطة التنفيذية بين الأنظمة، فإن نموذج الشورى في الإسلام هو أنّها معلّمة وفق هذا التطبيق الذي ظهرت آثاره واضحة كل الوضوح فلا قيمة لوجود رئيس للدولة بغير أن يمارس صلاحياته بعد المشورة وهذا هو الذي قام به أبو بكر رضي الله عنه، ولم يمنعه من ذلك أن تعارضه الأكثرية.

(٤) البعد الاستراتيجي لحروب الردة هو " توحيد جزيرة العرب" :

على المستوى الاستراتيجي ، تسلم عمر بن الخطاب من أبي بكر الجزيرة العربية و هي موحدة ، ولولا ذلك لما انطلق إلى خارجها ، شرقاً و غرباً و شمالاً ، و بغير هذا التوحيد لم يكن التاريخ الاسلامي الذي عرفناه في عهد عمر ليتحقق بهذا الحجم و بالسرعة التي حدث بها حيث كتب المؤرخون (كان الإسلام يتمدد في عهد عمر مسافة ٢٥٠ كيلومتر في اليوم الواحد) ، لقد كان عهد أبو بكر هو - بحق - الأساس المتين لإنجازات عهد عمر ، و هو أمر كان عمر يجاهر به ، و كان يقول (ليتني كنت شعرة في صدر أبي بكر) من حجم تقديره للدور الهام في بناء الصرح الكبير للدولة الاسلامية ، رضي الله عن الصديق و الفاروق أتمّ الرضى ، و لهما كل الاحترام اللائق بهما .

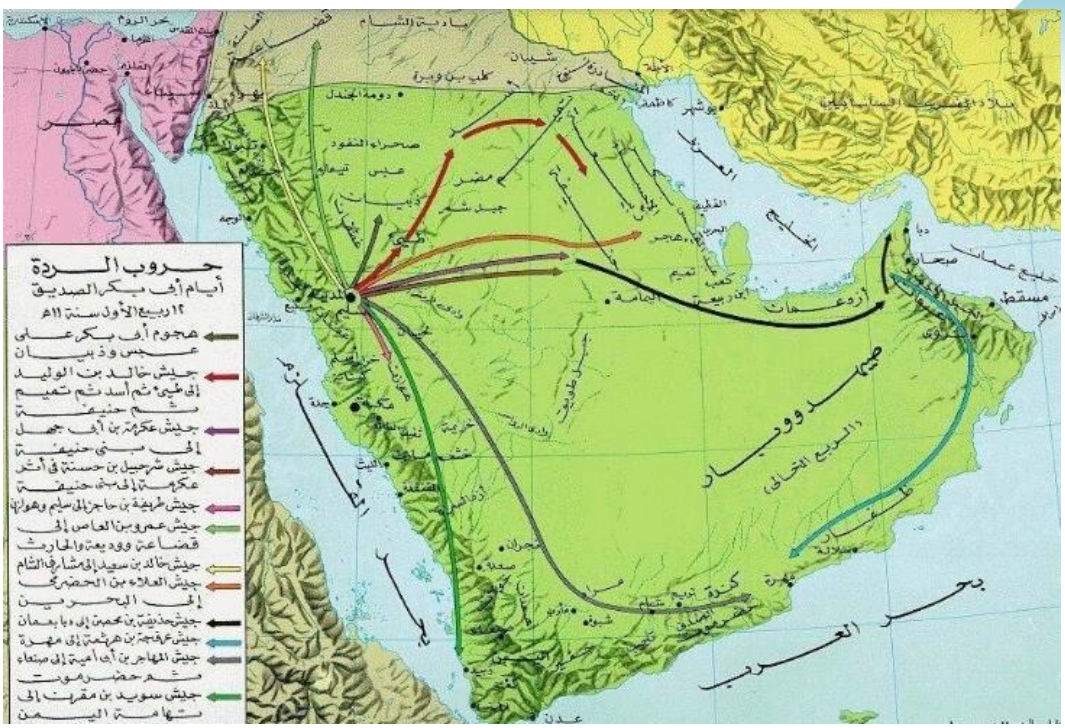

خروج البعوث لمواجهة المرتدين في جميع أنحاء الجزيرة العربية

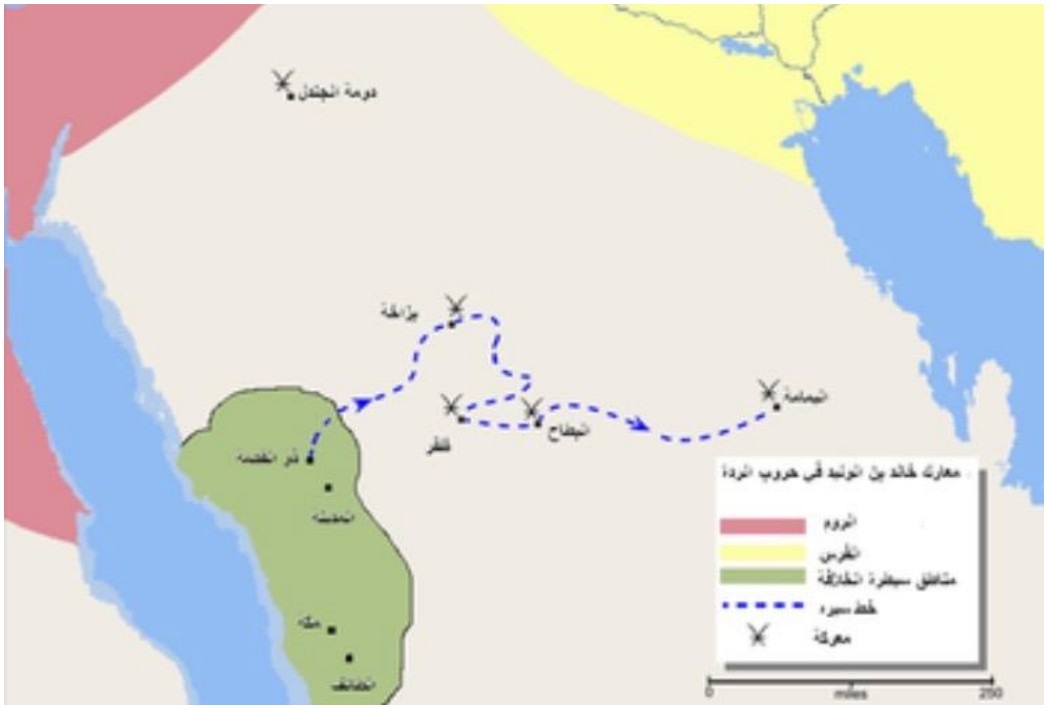

جيش خالد بن الوليد متجها إلى اليمامة

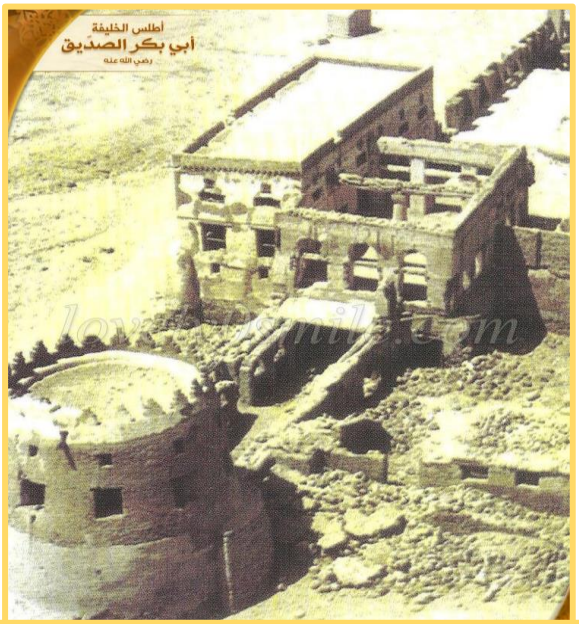

حديقة الموت و فيها جرت أعنف المعارك و كانت مع مسيلمة

ولنرجع مرة أخرى إلى مو اقف وكلمات هذا الرجل التي تبين " الجنديّة " المنضبطة في شخصيته التي جمعت بين اللين و الرقة في أمر الدّنيا ، و الحزم الصارم في أمر العقيدة، وهذا هو نهج المصطفى ﷺ :

- في صلح الحديبية كان قرار النبي ﷺ هو إبرام عقد الصلح مع قريش ، وفيه أن يرجع المسلمون إلى المدينة ولا يدخلون مكة المكرمة معتمرين ، كان قبول هذا الشرط شاقاً على المسلمين و كان أكثرهم غيظاً هو عمر رضي الله عنه ، فلما رآه أبوبكر يراجع النبي ﷺ المرة تلو الأخرى بحدّة ، فقال له في جندية منضبطة بالكامل (ياعمر، إنّه رسول الله ، فالزم غرزه) ، أي عليك أن تتبع خطاه في التزام كامل، ولا تضع قدمك إلا في الموضع الذي يرفع منه قدمه ،تلك هي الجندية التي فهمها أبابكر رضي الله عنه .

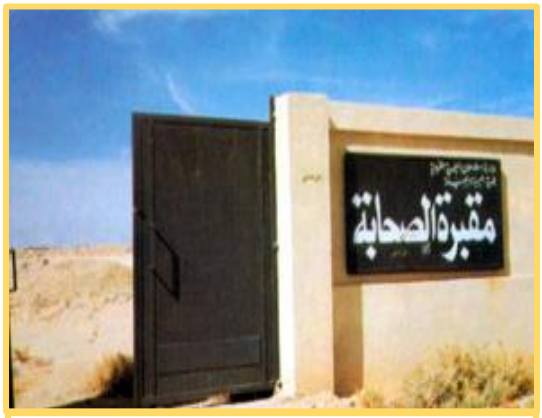

شهداء اليمامة

- كان أسامة راكباً فرسه و هو قائد الجيش و أبو بكر يمشي على قدميه، فلما أراد أسامة أن ينزل ، قال له أبو بكر (لا تنزل ، ما عليّ أن أغبر قدمي ساعة في سبيل الله) ، ثم أوصاه قائلاً : (احرص على الموت توهب لك الحياة) ،
- رحم الله أبي بكر الصديق ، الرجل النحيل شكلاً ، الأسد الهصور فعلاً و عملاً، و جزاه الله عن أمة محمد ﷺ كل خير.

ثانياً : سقيفة بني ساعدة (الحادثة كما حدثت)

توفي النبي ﷺ يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول سنة ١١ هـ ، و هو نفس يوم ولادته ، ١٢ ربيع الأول ، فأصيب الناس بصدمة شديدة و ساد المدينة حزن عميق ، و لما كان بيته لصيق مسجده فلم يكن هناك فاصل بين بكاء من في البيت و نشيج من هم في المسجد و كان هياج عمر رضي الله عنه ، مسموعاً و هو ينادي : (من قال أنّ محمداً قد مات ضربت عنقه ، و إنما ذهب مثلما ذهب موسى للقاء ربه ، و سوف يعود) ، و قد قال علي رضي الله عنه في أواخر حياته : (و الله ما فقدت صو ابي في حياتي إلا مرتين، يوم توفي رسول الله ﷺ، ويوم قتل عثمان رضي الله عنه)، في غمرة تلك الصدمة و انشغال الناس دعا سعد بن عبادة ، وهو من زعماء الخزرج إلى تجمع تشاوري حيث يسكن ضمن مجموعة من بيوت الخزرج التي تخللتها المزروعات وطوقها نخيل المدينة الذي ألقى بظلاله على تلك المساكن ، وكان في وسط تلك المساكن باحة كبيرة ، تطلّ عليها سقيفة للوقاية من حرّ الشمس ، جلس تحتها سعد بن عبادة وشرح للأنصار ما سيجري بعد وفاة النبي ﷺ ، مشيداً بدورهم في حماية الدعوة الإسلامية مقابل خذلان قريش ، وأنّهم الأنصار، قد

أوفوا بالعهد الذي قطعوه على أنفسهم مع رسول الله عليه السلام ، و قد رحل إلى ربه و حان الوقت ليستعيد أهل المدينة موقعهم القيادي في إدارة شؤونهم و قيادة الدعوة الإسلامية في أنحاء جزيرة العرب ، كان يتحدث بصوت خفيض بسبب مرضه و قد شد رأسه بعصابة من قماش فوقف ابنه قيس بجواره يردد ما يقوله بصوت مرتفع ليسمعه الناس ، عندئذ... ذهب إلى المسجد النبوي من ينبه الناس إلى ما يجري هناك قائلاً لهم : (إن هذا الحي من الأنصار قد انحازوا إلى سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة ، فإن كان لكم بأمر الناس حاجة فأدركوا قبل أن يتفاقم أمرهم) فنهض أبو بكر و عمر رضي الله عنهما متجهين إلى سقيفة بني ساعدة ، فلما دخلا اتجهت إليهما الأنظار، وكان سعد ملتحفاً بعباءة من وجعه بينما خطيبه يقول للناس: (نحن أنصار الله وكتيبة الإسلام، و أنتم يا معشر المهاجرين رهط نبينا، وقد دفت دافة منكم تريدون أن تختزلونا من أصلنا، وتحصنونا من الأمر) .

◆ إذن ، المشهد الآن هو أن الأنصار ،أو (الخزرج) تحديداً، قد طرحوا موضوع قيادتهم للمدينة و زعامتهم للدولة التي تتسع حدودها يوماً بعد يوم ، و بغير التوسع في التفاصيل، تحدث أبو بكر رضي الله عنه ، فلم يترك شيئاً أنزله الله عزّوجل في الأنصار، أو ذكره رسول الله ﷺ في شأنهم إلا استحضره، وكان مما قال : (قد علمتم أن رسول الله ﷺ قال : «لو سلك الناس وادياً وسلكت الأنصار وادياً، لسلكت وادي الأنصار، الناس دثار و أنتم الشعار» ، و الشعار هو الثوب الرقيق الأقرب للبدن مما يلبسه الناس ، ثم وجه أبو بكر حديثه مباشرة إلى الداعي للاجتماع فقال : " ولقد علمت يا سعد أن رسول الله قال و أنت قاعد: « قريش ولاة هذا الأمر فبرُّ النّاس تبعٌ لبرّهم، وفاجرهم تبع لفاجرهم ») ،فقال له سعد: "صدقت نحن الوزراء، و أنتم الأمراء " ، و سبب تسمية النبي عليه السلام قريشاً هنا، راجع إلى اجتماع العرب عليهم أنّهم أهل الحرم الذي يقصده العرب للحج و من دخله كان آمناً، فلا ثارات أو تنافس بينهم و بين أيّاً من أحياء العرب حتى كانت تجارتهم تمر على جميع القبائل فلا يعترضها أحد ، وكانت خاتمة

كلام أبي بكر: (وهذا عمر بن الخطاب الذي قال رسول الله فيه ، اللهم أعز الدين به ، وهذا أبو عبيدة بن الجراح الذي قال رسول الله عنه أمين هذه الأمة، فبايعوا أيهما شئتم) ، فقالا : (والله ما كنا لنتقدمك). فلما استمر الكلام يتردد تحت السقيفة ، وكثر اللغط ، وارتفعت الأصوات و خشى الحكماء تفاقم الخلاف قال عمر رضي الله عنه : (يا معشر المسلمين إن أولى الناس بأمر النبي الله ثاني اثنين إذ هما في الغار) ، و أراد أن يبايع أبا بكر فسبقه رجل من الأنصار- هو بشير بن سعد والد النعمان بن بشير - فبايع أبا بكر، ثم بايعه عمر وتابعهما الناس ، فلما انتهوا خطب أبو بكر فحمد الله تعالى و أثنى عليه بما هو أهله، ثم قال : (أمّا بعد أيّها الناس ، فإنّي قد ولّيت عليكم ، ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني ، الصدق أمانة ، والكذب خيانة، والضعيف منكم قوي عندي حتى أزيح علّته إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا يشيع قوم قط الفاحشة إلا عمهم الله بالبلاء ، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله) .

◆ لقد كانت دقائق عصيبة لو انشغل عنها كبار الصحابة في الحادث الجلل ، وفاة النبي ﷺ ، لتغير مسار الأحداث ، و لو رجعنا قليلاً إلى يوم فتح مكة حينما تدفقت قوات المدينة المنورة عبر شوارع مكة الرئيسية ، ومن بينها كتيبة الأنصار التي كان يترأسها سعد بن عبادة الخزرجي فلما مرّ من أمام أبي سفيان و العباس رضي الله عنه ، وهما من قيادات قريش ، رفع سيفه وهو راكب فرسه و حركه في نشوة المنتصر قائلاً: (اليوم يوم الملحمة ، اليوم يذل الله قريش) ، فسارع الرجلان إلى رسول الله ﷺ الذي أعلن الأمان العام لأهل مكة ، و أخبراه بما قاله سعد بن عبادة ، فقال عليه السلام : (بل اليوم يوم المرحمة، اليوم يعز الله قريش) ثم أصدر عليه الصلاة و السلام قراره

الحاسم بأن تنزع الراية من سعد ، ويتسلمها ابنه قيس بن سعد ، الذي كان من وجوه الصحابة أيضاً ، فحقق هذا القرار الحكيم المعالجة الملائمة للموقف بغير أثر جانبي في نفس سعد .

وبالتالي فنحن أمام شخصية لديها طموح ، وقد دفعه طموحه إلى رفض مبايعة أبي بكر، فقال عمر لأبي بكر: (أرسل إلى سعد فليبايع)، قال لهما بشير بن سعد : (اتركوه، إنما هو رجل واحد قد جلس في بيته) ، فترك سعد على حاله ، ثم جاءت بيعة عمر رضي الله عنه ، ورفض سعد أيضاً أن يبايع عمر ، و انتقل إلى الشام و توفي هناك ، وبالنتيجة فإن مبادرة أبو بكر و عمر رضي الله عنهما إلى السقيفة تداركت و حالت دون نقل القيادة حتى تأخذ شكلاً قبلياً بحتاً ، ولو أن الأمر استقر في يد سعد بن عبادة الخزرجي ما كانت الأوس لتدعه حتى تنقل الخلافة إليها من بعده ، لما بين القبيلتين من تنافس ، بل و معارك في يوم بعاث ، استطاع يهودي أن يستثيرها في عهد النبوة ، حتى تداعى الحيان إلى السلاح و حدّدوا مكاناً للقتال ، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج مسرعاً ، و جرَّ عباءته ولم يلبسها إلا وهو خارج من بيته لخطورة الحدث ، فلما بلغ مكان تجمعهما قال : (يا معشر المسلمين، اللهَ اللهَ، أَبِدعوى الجاهلية، وأنا بين أظهركم ؟ أَبَعد أن هداكم الله إلى الإسلام، وأكرمكم به ، وقطع به عنكم دعوى الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر، وألّف به بينكم، ترجعون إلى ما كنتم عليه كفاراً) فعرف القوم أنّها نزغة من الشيطان، وكيد من عدوٍّ لهم، وبكوا، وعانق الرجال بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله سامعين مطيعين ، نعم حدث هذا التنافس في حياة النبي ﷺ ، وكان أدّعى للتكرار بعد موته لو تسلم أحد الحيين الخلافة دون الآخر.

◆ إن تناول حادثة السقيفة بشكل خاطئ لا ينصف رجال تلك المرحلة التي أعقبتها مباشرة حروب الردة ، ولو أن الخلاف استمر داخل المدينة المنورة، وتشعّب ،لما قامت

للإسلام قائمة ، أمام طموحات (مسيلمة في اليمامة ،والأسود العنسي في اليمن ، سجاح، طليحة بن خويلد) ، ولم تثبت أمام هذا الانعطاف الخطير إلا المدينة ومكة فقط، الأمر الذي يجعل حدث السقيفة هو القنطرة الحقيقية التي عبر منها هذا الدين من تلك المرحلة ليصل إلينا ، وقرون سبقتنا وأخرى تعقبنا ، فجزى الله من قام بدور فعال ومؤثر في تلك الفترة الهامة خير الجزاء ، وغفر الله لمن يصورها على غير حقيقتها.

موقع سقيفة بني ساعدة في المدينة المنورة

تقع هذه السقيفة في الجهة الشمالية الغربية من المسجد النبوي بين مساكن قبيلة بني ساعدة الخزرجية، وكانت السقيفة داخل مزرعة تتخللها بيوت متفرقة حيث تسكن قبيلة بني ساعدة داخل البساتين المتجاورة، وقد كانت سقيفة بني ساعدة كبيرة بحيث اجتمع فيها عدد كبير من الأنصار، وأمامها رحبة واسعة تتسع لهذا العدد إن ضاقت عنهم السقيفة نفسها، وكان بقربها بئر لبني ساعدة. وتحولت هذه السقيفة فيما بعد إلى مبنى، تغيرت أشكاله عبر العصور، وهو الآن حديقة تطل مباشرة على السور الغربي للمسجد النبوي

السقيفة الآن ، حديقة عامّة

تمّ الحمد للّه